

الصورة عند شعراء الزهد المغاربة

أ.عكري عبد القادر

جامعة تلمسان

إن الصورة الشعرية هي "أساس العمل الأدبي"¹ فهي جوهر النص الشعري وهي ليست مستحدثة عند شعراء الزهد في المغرب العربي، بل هي موجودة مع وجود اللغة العربية التي وصلتنا سواء عند الجاهلين أو من العصر الإسلامي في المشرق وهي قد تكون أكمل من بعض أو أنقص منها في إيصال المعنى إلى المتلقي وفي استفادته من هذا المعنى. ولعلنا في دراستنا البسيطة نحصرها في بعض التشبيهات أو الاستعارات أو صور البديع التي ظهرت لنا في هذه النصوص الشعرية، ونحن نعلم أننا لا نوفها حقها من التحليل. وقد يرى القارئ لهذه الأشعار أنها لا تخلو من هذا النوع من التصوير من قريب أو من بعيد، إن دل ذلك على شيء فإنما يدل على سعة أولئك الشعراء للغة العربية ومعانيها وألفاظها وتوظيف كل ذلك كما شاءوا في النص الشعري حتى تتضح الدلالة "فالمعنى الواحد يستطاع أدأؤه بأساليب مختلفة في وضوح الدلالة"². هذه الصورة الشعرية لها أشكال مختلفة، فمنها ما هو بسيط ومنها ما هو معقد يستعمل صاحبه الرمز والاستعارات التي لا بد من التمعن فيها بدقة حتى نجد تلك العلاقات الخفية بين أطرافها أو العلاقات المحدثه بين هذه الأطراف³ و لعلنا نأخذ بعض النماذج من هذه المدونة ونحاول أن نجد فيها هذا التصوير قصد وضع رؤية خاصة لها، و لننظر إلى هذا التصوير عند أحمد بن أبي سليمان :

أَرَى الْبَرْقَ مِنْ نَحْوِ الْعَصِيبِ تُوقِدَا تَغِيبُ طُورًا لَمَعُهُ وَتَرَدَّدَا
دَعَيْتُ مُعَلِّمًا إِذْ صِرْتَ شَيْخًا وَ أَيَّامَ الشَّبَابِ كُنْتُ بُورًا
لَئِنْ كَانَ الْمَشِيبُ أَتَى نَذِيرًا فَإِنِّي سَوْفَ أَدْعُوهُ بِشِيرًا⁴

إن البرق يشق ظلمة الغيوم و ينير الليلة الحالكة، كذا المشيب عند الصواف قد ظهر من ظلمة سواد الشعر هذا التصوير الجميل للشاعر يظهر كذلك في تشبيه أيام الشباب بالأرض البور التي لا ينمو فيها أي زرع كذا توظيف الشاعر لصورة بيانية أخرى في البيت الثالث حين شبه المشيب بالإنسان الاستعارة لتبرز المعاني في صورة حبة محسوسة، تمكن المتلقي من الوقوف على علاقة الشاعر بالواقع و فهم أحاسيسه تجاه ذاته كذلك وصورة أخرى نراها عند بكر بن حماد في قوله :

قَفْ بِالْقُبُورِ فَنَاءَ الْهَامِدِينَ بِهَا مَنْ أَعْظَمَ بَلِيَتْ فِيهَا وَأُجْسَادَ
وَالْمَوْتُ يَهْدِمُ مَا بَنَيْتَهُ مِنْ بَدَخٍ فَمَا انْتَظَارَكَ يَا بَكْرُ بْنُ حَمَادَ⁵

لقد علم الباحث والمتلقي أن من سكن القبر لا يمكن له أن يجيبك حين تناديه . لكن براعة الشاعر التي وضعتنا أمام هذا التشكيل اللغوي الذي جعل الصورة بنية واحدة الذي اختزل المسافة بين طرفي الصورة و ترقى بخياله ليوصل للمتلقي المعنى كاملا واضحا، وقد جعل للموت معولا أو فأسا يهدم بها فكان أن حذف المشبه به "الإنسان" ورمز له بأحد لوازمه "يهدم" فتمت الاستعارة و كانا طرفي التشبيه قد تقاربا حتى التصقا، وهذا الحصري يشبه الموت بالعدو القاتل الذي لا بد يصيب صاحبه بسهمه و هي صورة فيها تحريك للمجرد و جعله مادة محسوسة وإن كانت حركة هذا المجرد مؤدية إلى نتيجة مأسوية، حين يقول :

هُوَ الْمَوْتُ لَا بُدَّ مِنْ سَهْمِهِ فَكَيْفَ ادرعنا لكي يدلظا
أَنَا الْمَنَايَا لِيُدْرِكَ مَنْ وَنَى فِي الطَّرِيقِ وَ مَنَّا رُكْظًا⁶

و في البيت الذي يليه و غير بعيد عن المعنى الأول يصور لنا الموت بذاك الشيء الذي يأخذ اليابس والأخضر في طريقه و هو تصوير بليغ فإن هذا الموت سوف يأتي على الذي تأني في مشيته و يأتي كذلك على من ظن أنه سيهرب و كان يركض بما أوتي من قوة ، فيحس المتلقي بشراسة الموت و يستشعر ذلك التصوير الفني الذي أوقفه على مصيره . و لقد شغلت فكرة الموت أغلب شعراء الزهد فوظفوا فيها صورا شتى تعبر عن خوالجهم وآلامهم وخوفهم في آن واحد ، فانظر إلى هذه الأبيات :

أَصَافِحُ الْأَرْضَ فَإِنْ رَمَتْ الْقِيَامَ تَصْحَبُنِي ذَاتَ الْيَمِينِ عَصَا⁷
أَحْبُو إِلَى الْمَوْتِ كَمَا يَحْبُو الْجَمَلُ قَدْ جَاءَنِي مَا لَيْسَ فِيهِ حِيلٌ⁸

ففي البيتان صور الاقتراب الخفي للموت و قروب أجل كلا الشاعرين فالعجز الذي يجلب الاتكاء على العصا والحبو الذي أدى إليه الكبر كلاهما دليل على اقتراب المنية ، ولقد جاء التصوير الفني عند عيسى بن مسكين بديعا فصورة الشيخوخة شاخصة في عبارة « أصافح الأرض » و هي كناية عن الكبر ، لها نفس المعنى و نفس الرمزية مع عبارات « تصحبني ذات اليمين عصا » و « أحبو إلى الموت » و « قد جاءني ما ليس فيه حيل » و تصوير آخر نستشفه عند بكر في بيته الموالي :

وَأَيُّدِي الْمَنَايَا كُلُّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ إِذَا فَتَقْتُ لَا يُسْتَطَاعُ رُتُوقُهَا⁹

فقد استعار للمنايا أيد تترد أن تخنق صاحبها الموكلة إليه وهي تزوره بتكرار على مر الزمن وتقترب منه أكثر فأكثر وتحدث فيه ندوبا تستترفه إلى أن يلقي حتفه .

وهذا بن عبد ربه بن حمديس الصقلي وقد عبرا هما الآخران عن الفكرة وصوراها أحسن تصوير ونقلوا لنا ذلك التحويل من المجرد إلى المحسوس معتمدا في ذلك على التشكيل اللغوي الذي يحدد الصورة البيانية التي تجعل الجامد متحركا نابضا بالحياة .

يقول بن عبد ربه :

بَادَرَ إِلَى التَّوْبَةِ الْخُلَصَاءِ مُجْتَهِدًا وَالْمَوْتُ وَيَحْكُ لَمْ يُمَدَدْ إِلَيْكَ يَدًا¹⁰

ويقول بن حمديس الصقلي :

دَبَّ مَوْتُ السُّكُونِ فِي حَرَكَاتِي وَخَبَا فِي رَمَادِهِ حَمْرُ جَمْرِي¹¹

إن الموت لن يترك لصاحبه فرصة و لن يساعده بل هو يتحين الوقت المناسب، وقد استعار بن عبد ربه للموت يدا التي لن يمددها للمساعدة وهي صورة جميلة جعل صاحبها المعنى مجرد محسوسا و ذلك لتسليم الذات البشرية لهذا المصير المحتوم . و تقريبا نفس العمل قام به بن حمديس حين جعل هذا الموت حركيا و صاحب نشاط فهو قد أوجد له الفعل " دب " ، حتى أن تلك الحركة الحية " حمر جمري " قد اندست تحت الرماد الكثيف الذي غطاها ، والشرط الثاني من البيت هو تعبير عن صورة بيانية مشعة يتجلى من خلالها القول الشهير " رب كناية تربي على إفصاح " فقلوه " و خبا في رماده حمر جمري " كناية عن ما تبقى له من حركة وحياة واصفا لنا انفعالاته وأفكاره و تجاربه وعواطفه على غرار كل شعراء الزهد.

ولنختتم هذا العنصر بأحد النماذج التي رسمها لنا بكر بن حماد:

سَحَابُ الْمَنَايَا كُلُّ يَوْمٍ يَظْلُهُ فَقَدْ هَطَلَتْ حَوْلِي وَلَاحَ بُرُوقُهَا¹²

إنها صورة الموت مرة أخرى تظهر عند بكر ليعبر بها عن انفعالاته وعواطفه ، لقد استعار لها (المنية) هذه المرة لفظا جديدا تمثل في " سحاب " و اكتملت الصورة بالظل الذي تحدته هذه السحابة التي تزوره كل يوم ثم إنها بدأت في الهطول ولمع برقها فهي ليست ببعيدة وقد اعتنى بكر وغيره من شعراء الزهد في المغرب بالصورة الفنية لأنها جوهر الشعر مستمدين تشكيلاها اللغوي من الموروث العربي ومن ثقافتهم الدينية وما هي هذه الصورة إلا تقريب المفاهيم البعيدة والصعبة للمتلقي وجعله يعيش حالة حاسمة أمامه ، حين يخلق له علاقة تقرب أو تجمع بين الأشياء المتباعدة المختلفة في هذه الصورة البيانية أو كما يقول إحسان عباس " هي خلق جديد لعلاقات جديدة " ¹³.

قسم الهوامش:

- 1 - د محمد مرتاض . "النقد الأدبي القديم في المغرب العربي . نشأته و تطوره" (دراسة وتطبيق). ، منشورات اتحاد كتاب العربص81
- 2 - عبد اللطيف شريفني و.زهير دراقي " الاحاطة في علوم البلاغة" - ديوان المطبوعات الجامعية - بن عكنون- الجزائر 2004 . ص112
- 3 - ينظر عبد القادر الرباعي. " الصورة في شعر أبي تمام " . ص 14.
- 4 - العربي دحو. "الأدب العربي في المغرب العربي" ص 255.
- 5 - المرجع السابق. ص 188.
- 6 - الموسوعة الشعرية الإصدار الثالث
- 7 - إبراهيم الدسوقي .جاد الرب . " شعر المغرب حتى خلافة المعز " ص 175.
- 8 - رمضان شاوش. "الدر الوقاد". ص 91.
- 9 - رمضان شاوش، " الدر الوقاد" ص79.
- 10 - نفح الطيب "المجلد 4 ص 321.
- 11 - عبد العزيز عتيق " الأدب العربي في الأندلس " ص 224
- 12 - محمد الطمار . " تاريخ الأدب الجزائري " ص 35
- 13 - إحسان عباس . " فن الشعر " ص260.